

إشكالية الهيمنة في الدراسات ما بعد الكولونيالية -مُقاربة نقدية ثقافية- The issue of hegemony in postcolonial studies - Acritical cultural approach-

أسماء شيهب، جامعة مولود معمري تيزي وزو (مخبر التمثلات الفكرية والثقافية)،

asma.chiheb@ummo.dz

تاريخ قبول المقال: 09-02-2025

تاريخ إرسال المقال: 10-01-2025

الملخص: إشكالية الهيمنة من أهم ما طرح في دراسات ما بعد الكولونيالية لأنها تبحث في تبعات أو مخلفات الاستعمار على الدول المستعمرة، والتي تكون تجسد التبعية للاستعمار بمختلف أشكالها الشيء الذي خلق التوتر الحضاري حول هويات وثقافات هذه الدول خاصة أن الغرب دائماً يسعى إلى فرض نفسه كنموذج مثالي ويتعمد الإساءة إلى الشعوب الأخرى.

تسعى هذه الدراسة الموسومة بـ "دراسات ما بعد الكولونيالية وإشكالية الهيمنة" - مقارنة نقدية ثقافية- إلى الكشف عن ملامح الهيمنة ما بعد الاستعمارية و تمثلاتها في الدول المستعمرة من خلال آراء و طروحات منظري دراسات ما بعد الكولونيالية بدءاً من "فرانز فانون" مروراً بـ "إدوارد سعيد" ولا تقف إشكالية الهيمنة في حدودها الواصفة لاستمرار سيطرة الاستعمار حتى بعد انسحابه، بل تفتح سجالها حول الظروف التي هيأت لاستمرارية السيطرة الاستيطانية عبر نقاشاتها للمشكلات الداخلية والخارجية التي ساعدت على ذلك وذلك من خلال ما قدمه لما المفكر مالك بن نبي الذي كان له رأياً آخر حول الثنائية الاستعمار والمستعمر.

الكلمات المفتاحية: الهيمنة، الاستعمار، الدراسات ما بعد الكولونيالية، الهيمنة الثقافية.

Abstract: The issue of hegemony is one of the most significant topics addressed in postcolonial studies, as it examines the aftermath and remnants of colonialism in colonized countries. These remnants are often manifested in various forms of dependency on colonial powers, leading to cultural tensions concerning the identities and cultures of these nations. This is especially true given that the West consistently seeks to present itself as the ideal model while deliberately undermining other peoples and cultures.

This study, titled Postcolonial Studies and the Issue of Hegemony, aims to uncover the features of postcolonial hegemony and its representations in colonized countries through the perspectives and ideas of prominent postcolonial theorists. Starting with Frantz Fanon and moving through to Edward Said, the study explores the concept of hegemony, which not only describes the persistent influence of colonial domination even after its official end but also opens a broader debate about the conditions that enabled the continuity of settler control. These discussions extend to both the internal and external factors that contributed to this phenomenon, as highlighted in the writings of the thinker Malek Bennabi, who offered a distinct perspective on the dichotomy of colonizer and colonized.

Key words : Hegemony , Colonialism, Postcolonial Studies, Cultural Hegemony.

مقدمة:

أفرز الاستعمار أزماتٍ وتوتراتٍ حضارية لدى الشعوب المستعمرة صاحبها ردّة فعل لدى مثقفيها، ممّا دفعهم للكشف عن حقيقته عبر تحليل الخطابات الناتجة من قبل هذا المستعمر، وبالدرجة الأولى كان الخطاب الأدبي النتاج الأول الذي تم إخضاعه إلى التحليل عبر استراتيجيات نصوصيّة عملت على صبر صورة المستعمر وتفكيكها، وكشف آلياته و استراتيجياته في بناء الصورة المغلوطة والزائفة عن الشعوب المستعمرة من أجل شرعنة واستباحة عملياته الاستعمارية.

تشكّلت من خلال هذه الاجتهادات نظرية ما بعد استعمارية تبحث في مخلفات الاستعمار وتبعاته على المستعمرات، ساعيةً إلى قراءة الفكر الغربي في تعامله مع الشرق من خلال مقاربة نقدية بأبعاد ثقافية سياسية وتاريخية، تقف على تفكيك المعادلات والفرضيات الحضارية التي وضعها الاستعمار وترقّب كل أشكال الهيمنة والسيطرة التي بقيت تشكّل أذيال المستعمر في هذه الشعوب.

ومن الأسباب التي دعت إلى دراسة هذا الموضوع هو أنّ الهيمنة الاستعمارية ملمح واضح ومهم في الدراسات ما بعد الكولونيالية ذات الصلة القوية بالدراسات الثقافية التي تعتبر تاريخ الشعوب وراهنها الحضاري مطلباً مهماً من مطالب بحثها.

تتبع أهمية هذه الدراسة من كونها تبحث في ظاهرة ثقافية وجودية، ذات الصلة القوية بتاريخ الأمم وهوياتها، إذ ترصد واقع المستعمرات الحضاري بعد خروج المستعمر منها متبعيةً مخلفاته وتركاته على هوية وحضارة تلك الشعوب.

نسعى من خلال هذه الدراسة أن نقف عند أهم ما سيق لمصطلح الهيمنة من مفاهيم ثم نخرج إلى تمثلاتها في حضارة المستعمرات، من خلال مجموع المشاكل التي دفعت إلى بقاء الهيمنة حتى بعد الانسحاب العسكري من الدول، ولتحقيق هذا المبتغى تشكّلت لدينا مجموعة من الأسئلة تكوّنت في سؤال جوهرى مفاده: ما هي أهم المشكلات التي أفرزها الاستعمار؟ ما هي المشاكل الحضارية لما بعد الاستعمار؟ أين تتجلى الهيمنة الاستعمارية في الدراسات ما بعد الكولونيالية وماهي أهم مفاهيمها وأبرز تمظهراتها؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات وكأي بحث علمي لا بدّ له من فرضيات تسري به الى ايجاد الحل أو الإجابة عن الأسئلة، نفترض منطقيًا أنّ الدراسات مابعد الكولونيالية اهتمت بتتبّع أشكال بقاء السيطرة الاستعمارية داخل مستعمراتها من خلال مثقفيها الذين رفعوا شعار الاستقلال الحضاري والفكري والتخلص من أي شكل من أشكال السيطرة، وأنّ الهيمنة ملمح ما بعد استعماري يفرض نفسه في الأبعاد الثقافية الحضارية والاقتصادية لتكون سلطة استعمارية من نوع آخر يضرب الشعوب في حضارتها وهوياتها ولها تجلياتها على المستوى الحضاري للأمم.

أردنا من خلال هذه الدراسة أن نصل في الأخير إلى القول بأن الدراسات ما بعد الكولونيالية كشفت لنا عبر عن مؤسسيها عن تبعات ما بعد الاستعمار عبر مؤلفاتهم التي شكلت منعرجاً حاسماً في مجال الدراسات الثقافية. التي رصدت معالم بقاء الاستعمار في الشعوب المستعمرة وبيان مواقف المثقفين المختلفة ودعواهم للتخلص منها وفهم الخطورة الحضارية المغلوطة للاستعمار الغربي في سبيل شرعنة استعمارهم للشرق.

أما عن المنهج المعتمد في هذا الدراسة ستكون المقاربة النقدية الثقافية لأنها تتماشى والهدف المرجو تحقيقه من الدراسة إضافة إلى الاعتماد على منهج تحليل النص الذي يمكننا من تحليل وتفكيك مجموعة من الأقوال التنظيرية ومقاربتها في فهم إشكالية الهيمنة وطروحاتها.

المبحث الأول: مفاهيم عامة.

تتعدد المصطلحات وتتضارب المفاهيم المعبرة والواقعة للهيمنة كونها تصف الاستعلاء العسكري والسياسي والثقافي الممارس على شعوب العالم الضعيفة، من أجل استغلالها وترسيخ فكرة أن للعالم الأبيض حق السيطرة على غيره من الشعوب لتفوقه وتقدمه وأن حملاته الاستعمارية جاءت جزاء حالة الضعف الحضاري والثقافي والعسكري، الذي تُعاني وتتخبط فيه الشعوب، وبالتالي لا فكاك أمامها إلا الرضوخ وتقبل الاستعمار لأنه المنجي لها.

المطلب الأول: الهيمنة في الدراسات الثقافية

الهيمنة من المصطلحات التي تعددت مفاهيمها في الدراسات الثقافية والدراسات ما بعد الكولونيالية خاصة لأنها ترتبط بأبعاد زمنية مختلفة بين زمن الاستعمار وزمن ما بعد الاستعمار ليكون بذلك مفهوم الهيمنة يؤسس لمفهوم جديد ومفهوم قديم مرتبط بقدّم الظروف التي انبثق فيها، سنتطرق في هذا المطلب إلى مفاهيم الهيمنة والفرق بينها الكتب الثقافية المؤسسة وعند أبرز منظرو الدراسات ما بعد الكولونيالية، منتقلين بذلك للحديث حول الدراسات ما بعد الكولونيالية النشأة الرواد وأهم ما دعوا له.

أولاً: الهيمنة والسيطرة المفهوم والتأسيس للعلاقة.

1- بيل أشكروفت Billy Ashcroft:

يذهب " أشكروفت " في كتابه الدراسات ما بعد الكولونيالية «أنّ الهيمنة مصطلح مفيد لوصف نجاح القوة الإمبريالية مع الشعب المستعمر الذي ربما يفوق بكثير عدد أو قوى عسكرية مختلفة»¹

أ- **الهيمنة السلطوية** : يُشير مصطلح السلطة هو الآخر في دلالاته العامة التي تشيع اليوم في الخطابات السياسية والثقافية وبما هو متداول إلى التسلط والرقابة الصارمة التي يفرضها فرد أو شعب أو أمة لتحقيق جملة من الأهداف ففي أصل الكلمة اليوناني تُشير المفردة إلى القيادة والحكم ذلك أنّ ايجيمون egemon تعني قائداً أو حاكماً.

ثانياً: الهيمنة في قواميس الثقافة

1- كريس دو همال CRISSE De Hemmal:

يرتبط مصطلح الهيمنة Hegemony بفكر الاستعمار colonialisme في دلالاته على التسلط من قبل فئة طبقة أو جماعة أو دولة على من هم أدنى أو أقل منها، والاستعمار الغربي كان يُمارس هيمنته على الشعوب الضعيفة ويسعى إلى السيطرة المطلقة عليه وطمس ثقافتها. والهيمنة في الأصل مصطلح يُشير إلى تسلط دولة عن طريق السيطرة بالقبول، وهذا المصطلح يصف بدقة نجاح الثورة الإمبريالية مع الشعب المستعمر «فالسيطرة لا تُفرض بالقوة الآن ولا حتى بضرورة الاقناع لكن...سيطرة أكثر براعة وشمولية من الاقتصاد وعلى أجهزة الدولة مثل التعليم والإعلام عن طريقها يتم تقديم مصلحة الطبقة المتسلطة كمصلحة عامة».²

أ- أنطونيو غرامشي Antonio Gramsci:

طرح "أنطونيو غرامشي" فكرة الهيمنة مؤكداً على أنّ السيطرة لا تأتي ولا تتم دائماً بسبب قوة المسيطر فحسب، ولكنها أيضاً تتمكن منّا بسبب قدرتها على جعلنا نقبل بها ونسلم بوجهاتها. اكتسب مصطلح الهيمنة عنده معنى مخالفاً فعنده تعني الهيمنة «ليس بمفهومها السياسي المباشر إنما من خلال رؤية العالم وبطبيعة العلاقات الإنسانية يسيرها أفراد مثقفون أو نخبة مثقفة أو مؤسسات ثقافية لتحل بديلاً لرؤية سابقة».³

ومفهوم الهيمنة عند "أنطونيو غرامشي" هو محاولة ناجحة لتفسير قدرة السلطة على تشكيل مجموعة من المفاهيم والقيم والأنظمة السياسية حتى بعد زوال وانسحاب القوة المتدخلة في ذلك «..والأنظمة السياسية وشخصيات الشعب ككل حتى بعد فترة طويلة من زوال المصدر الخارجي لتلك السلطة»⁴ في مفهوم "أنطونيو غرامشي" وصف لما قبل الاستعمار وهو ما يعرف بالقابلية للاستعمار وعدم تكافؤ القوى بين الدول، الأمر الذي ولد نوع من السهولة والقدرة على تحقيق الهيمنة، وثانياً نجد أنّ

الهيمنة تبدأ من دخول القوى الخارجية على دولة ما وتستمر حتى بعد زوالها في هيمنة مخالفة للهيمنة العسكرية.

المطلب الثاني: الدراسات ما بعد الكولونيالية.

نظرية ما بعد الاستعمار من أهم نظريات ما بعد البنيوية postestructuailisma وهي من أهم النظريات النقدية التي رافقت ما بعد الحداثة، بعدما سيطرت البنيوية على العقل الثقافي الغربي وبعد أن هيمنت الميثولوجيا البيضاء على الفكر العالمي وأصبح الغرب مصدر المعرفة والعلم والإبداع وموطن النظريات والمناهج العلمية.

أولاً: النشأة والمفهوم.

1- النشأة: إذا تمعنا في بؤادر نشأة نظرية ما بعد الاستعمار أو الخطاب ما بعد الكولونيالي « فلم تعرف طريقها نحو الوجود في مجال النظرية السياسية إلا في أواخر السبعينات من القرن الماضي وذلك لوصف مأزق الأمم التي تخلّصت من سطو الإمبراطوريات الأوروبية في أعقاب الحرب العالمية الثالثة ويُعدّ كتاب الإستشراق Orientalisme 1978... أحد الأعمال التأسيسية الأولى في هذا المجال»⁵، لقد جاءت هذه النظرية من وسط المستعمرات السابقة على يد مجموعة من الباحثين أمثال "إدوارد سعيد" و"هومي باهاباها" و"فرانز فانون" و"سيفاك" لكنّها لم تبق مجرد آراء رافضة للاستعمار وجهود محاولة في التخلص من بقاياها، بل تطورت إلى أن أصبحت نظريات ثقافية وبحوث أكاديمية تسعى إلى رفض الراهن الذي خلفه ذلك الاستعمار.

والنظرية ما بعد الكولونيالية تُشير إلى نوع من التحليل الذي ينطلق من فرضية مفادها أنّ الاستعمار التقليدي قد انتهى وأنّ مرحلة جديد من السيطرة والهيمنة تسمى مرحلة ما بعد الكولونيالية قد حلت محله وهي تستدعي نوع آخر من الفهم والتمييز.

أ- المفهوم: كريس دو همال يعرف نظرية ما بعد الاستعمار في قاموسه أفكار ومفكرون «بأنها حركة في النقد الاجتماعي والأدب التي تدرس آثار الإمبرالية الأوروبية في الشعوب المستعمرة، إنّما بعد الكولونيالية تقدم سردية مضادة تتصل بالشعوب المستعمرة سابقاً»⁶

وعليه فإنّ نظرية ما بعد الاستعمار في الحقيقة قراءة للفكر الغربي في تعامله مع الشرق من خلال مقارنة نقدية بأبعاد ثقافية سياسية وتاريخية، وقد وجد خطاب ما بعد الاستعمار طريقه إلى كل مدارس الفكر التي تُعنى بتحليل علاقات القوة والسعي لفهم طرائق تفعيل السيطرة وأشكال الهيمنة.

ثانياً: أعلام الدراسات ما بعد الكولونيالية.

1- فرانز فانون Frantz Fanon :

لا يمكننا بحال من الأحوال الحديث عن نظرية ما بعد الكولونيالية دون التوقف أمام المبشر الأول لها من خلال أعماله التي عزّزها "إدوارد سعيد" وطور من طرحها في كتابه "الاستشراق" وهي مجموعة من الاجتهادات التي سعى من خلالها "فانون" إلى استخدام نظرية التحليل النفسي لإبراز عواقب الاستعمار السيكولوجية وذلك بتركيزه حول ثنائية الأبيض والأسود، وخطورة خاصية السواد والتشويه وكذا قابلية المستعمر الأسود بارتداء القناع الأبيض تحت مسميات الثقافة والمكانة المرموقة.

لقد حظي "فرانز فانون" بدور مركزي في بلورة هذا الفكر المناهض للاستعمار من خلال الاجتهادات النوعية التي قدمها بدءاً بكتابه "بشرة سوداء أفنعة بيضاء"، ثم كتاب "معذبو الأرض" حيث تُرجمت كتبه إلى العديد من اللغات لطبيعة الأسئلة التي طرحها والتي تمسّ بالدرجة الأولى نوعية العلاقة بين المستعمر والمستعمّر ومصير الشعوب التي تقع خارج الدائرة الرأسمالية الغربية.

إنّ القضايا الرئيسية التي اشتغل عليها "فانون" وجعلها من أولوياته أنّ الاستعمار لا يقتصر فقط على الحكم العسكري الممارس والقوة فقط بل يوجد استعمار يفرض قوته وهيمنته، وهذه الهيمنة تكون سياسية اقتصادية وثقافية «تهدف إلى إلحاق المستعمر بالمستعمر وبسط السيطرة عليه وطمس هويته وإحاقه بالمركز»⁷ وفي هذا الصدد يذهب "فانون" إلى موقف يدعو من خلاله إلى ممارسة القوة وشرعنه الفعل المسلح لمقاومة الاستعمار و «مشدداً على خلق هوية وطنية مضادة تُؤسّس للتخلص من ذبول الاستعمار بكل أشكاله»⁸ لأن ما أخذ القوة لا يرد إلا بالقوة.

إنّ الطرح الفانوني إن صح لنا الوصف، جاوز البحث الأكاديمي حول فهم علاقة المستعمر بالمستعمر من خلال مبدأ القوة إلى ما هو أبعد وأعمق وهو مخلفات الاستعمار النفسية على المستعمر باعتباره طبيباً نفسياً، فكتاب "معذبو الأرض" les dame de la terre 1961 يعتبر مصدراً علمياً ومنهجياً يدفع بالهامشي والتابع إلى كسر كل القيود ومحاولة تحقيق الذات واسترجاع السيادة الفكرية والثقافية حيث يقول "فانون" في هذا الصدد: «الجد

الزنجي والأقنعة البيضاء على سبيل المثال مستودع العقد المركبة الذي تطور عن طريق بيئة المستعمرات»⁹ وهو يذهب إلى أن مشكلة النزعة الاستعمارية تستند إلى سيكولوجيات ناتجة عن هذه الظروف

أ- إدوارد سعيد Edward Waide Said

يُعتبر كتاب الاستشراق " لإدوارد سعيد" الانطلاقة الأولى التي فتحت باب الحديث والجدل حول قضية الأنا والآخر، الغرب والشرق، ولأنه جمع الاقتراحات والاجتهادات في فهم هذه العلاقة جعل منه أطروحة معرفية دائمة وحاضرة فيما تعلق بالدراسات الفلسفية والثقافية.

نجد إجماع في الأوساط الأكاديمية متفقا على أن كتاب "الاستشراق" وضع اللبنة الأولى للنظرية ما بعد الاستعمار ولخص مجموع الاقتراحات التي تعالت هنا وهناك حول رفض راهن المستعمرات، حيث يعتمد "إدوارد سعيد" على فرضيات أساسية في كتابه الاستشراق استناداً إلى حالة التقابل بين الشرق والغرب وباعتبار الاختلاف الي يُميز كلا الطرفين في الفكر التاريخ والعادات والتقاليد واللغة. استثمر المناهج النقدية المستمدة من النظريات الثقافية الأوروبية المعاصرة، واستطاع أن يطرح نموذجاً اعتبر الأول في تطبيقه لمنهجية ظواهراتية تفكيكية على المسلمات النصانية الثقافية الغربية، ساعياً من خلالها إلى بيان فرضيته حول مبدأ القوة في كل الأنظمة الغربية الإمبريالية مُرتبطة أيما ارتباط بسياسة واستراتيجية مبدأ القوة.

تعتبر هذه الدراسة بالنسبة له خطوة نحو فهم قوة الخطاب الثقافي الغربي . يقول في ذلك « أُملي هو أن أوضح البنية المتينة والصلبة للسيطرة الثقافية والأخطار والإغراءات الكامنة في استخدام هذه البنية خصوصاً بالنسبة للشعوب المستعمرة سابقاً أو على آخرين»¹⁰ يرى "إدوارد سعيد" أن الاستشراق يخدم السلطة والسيطرة الغربية على الشرق وذلك من خلال خطاب يعمل على إعادة تصوير الشرق في صورة الآخر الدوني والأقل شأنًا وهذا الأمر هو أبرز ما شكّل محور اهتمامه في دراسته للاستشراق «فما يهمه هو نظام هذا الخطاب الذي يجده لصيقاً بنظام الهيمنة المتأسس في غالب الأحيان على ما يُسمى بإساءة التمثيل الناتجة عن عمليات التخيل والقولبة»¹¹

توصل "إدوارد سعيد" في محاولة تحليليه لعلاقة الغرب بالشرق إلى أن الغرب استعمر الشرق عن طريق الخطاب الأدبي الذي اعتبره منعطفاً خطيراً يُساهم في تشكيل صورة للغرب كحضارة متفوقة وبالتالي سيتم إنتاج صورة مقابلة للشرق في خطابات الاستشراق بأشكال متعددة ومُخالفة وخادمة لصورة

الغرب ويكون فيها الشرق على أنه «لا عقلاني، فاسق، طفولي، متخلف، وبالمقابل الأوروبي العقلاني، صاحب الفضائل والناصح والسوي»¹²

إنّ هذه الصورة النمطية كنا يراها "إدوارد سعيد" تؤكد على السيطرة والهيمنة ما بعد الاستعمارية كونها تشير وبصفة مستمرة إلى الوضع الفوقي الذي يُنظر به إلى الشرق، من أجل هذا يولي "إدوارد سعيد" أهمية بالغة إلى تعالق الخطاب الروائي مع المشروع الإمبرالي وما ينتج عنه من وصف وتمثيل روائي عن الآخر معلناً الدور الفعال الذي تلعبه الرواية في صهر المواقف الإمبرالية تجاه العالم بالدرجة الأولى، وثانياً بتر كل النماذج المغلوطة التي وصفت الشرق بصورته الدونية، ولا ننسى أن لـ "إدوارد سعيد" كتباً أخرى بلور من خلالها موقفه تجاه الغرب المسيطر تمثلت في كتاب "الثقافة والإمبرالية" وكتاب "صورة المثقف" وهذه الاجتهادات تبلورت منتجةً حقلاً معرفياً وثقافياً مهتماً بتتبع الواقع الحضاري والثقافي للمستعمرات وهو نظرية ما بعد الكولونيالية.

المبحث الثاني: الهيمنة أسبابها وطرق تمثّلها.

تُوسّع الدّراسات الثقافية من استخدام نظرية الهيمنة لتشمل العرق الجنس و الجنوسة والدلالة والامتناع والإنتاج، لهذا يكون أبعد من أن يكون مجرد عملية اقتصادية، «والدراسات الثقافية تتساءل عن مدى هيمنة الأنماط علينا وعما إذا كنا قادرين على تعديل وجهة هذا الفعل الهيمني إلى وجهات أخرى؟ وما مدى مسؤوليتنا عنه وهل هو خيار أم إجبار قسري لقوى لاسيطرة لنا عليها».¹³

والهيمنة في الدّراسات الثقافية هي تتبّع لواقع التّسلط الممارس خارج المجال السياسي والعسكري، وقد تتمظهر الهيمنة الثقافية في مجموعة من النشاطات والمفاهيم التي نلمسها اليوم في المشهد وهذا ما سنتطرق له في المطلب الموالي.

المطلب الأول: الهيمنة في الدراسات النسوية

لقد كان لوجهات النظر النسوية اسهاماتها في النقد ما بعد الكولونيالي، فهما يشتركان في نفس الاستراتيجيات المناهضة و يجمعها توازٍ بين تاريخ النظرية النسوية وانشغالاتها وبين النقد ما بعد الكولونيالي وتعد "سبيفاك" من المؤسسين الفاعلين للخطاب ما بعد الكولونيالي وهي أول منظرة نسوية في مرحلة ما بعد الكولونيالية، تضمنت دراستها رؤى خاصة تسعى إلى قلب موازين الهيمنة والدعوى إلى التشكيك في الفرضيات الأساسية للفكر المهيمن متتبعاً الأبعاد المعرفية والخطابية للتدخلات الاستعمارية في ثقافة الآخرين.

أولاً: سببناك والدعوة إلى تفكيك الهيمنة.

1- الهيمنة الذكورية:

يُكمن هدف "سببناك" في تحطيم الفكر التاريخي والبحث عن مكانة النساء من خلال ثنائية المركز والهامش بصورة مقارنة بين «المرأة في العالم الثالث المهمشة والمرأة في العالم الأول السائدة من أجل الوصول إلى خصوصية المرأة في العالم الثالث»¹⁴ ينطلق عملها من طرحها للتساؤلات المصيرية حول حقيقة القمع والهيمنة الاستعمارية، والدعوى إلى وجوب فضح طرق المهيمين والمتسلط المتبوع في فرض الصمت والقمع على المهيمين عليه التابع المغلوب وتستخدم "سببناك" هذا المصطلح للإشارة إلى جميع المستويات المتدنية من المجتمع الاستعماري وما بعد الاستعماري، هم العاطلين عن العمل والمشردين والمزارعين الذين يعيشون من مورد رزقهم وما إلى ذلك¹⁵ كما تستخدم مصطلح التابع في رفضها ونقدها لتبعية المرأة للذكورة، والفقراء للبرجوازية والفلاحين للنخبة أو المستعمر للاستعمار أو المركز للأطراف في العلاقات الدولية غير العادية" وتعتبر عنه بأنه الفرد الذي يعيش ضمن مجموعة مهمشة غير قادرة على التعبير عن حاجاتها ورؤيتها ولا حتى كتابة تاريخها الخاص.

شكلت دراسات التابع محوراً هاماً في أبحاث عدد غير قليل من النقاد والمؤرخين الساعين لإعادة كتابة التاريخ شعوبهم التي عاشت تحت هيمنة الاستعمار لفترة طويلة من الزمن، ومن جهة أخرى ساعين إلى الكشف وتعرية الخطابات السياسية الثقافية والفكرية الغربية التي حكمت الإنسانية، فكانت جماعة التابع جماعة جريئة من المؤرخين الهنود الذين قلبوا تاريخ الهند المكتوب من قبل النخب المتأثرة بالسياسات الاستعمارية البريطانية، مقترحين بذلك إعادة كتابته في ضوء مفاهيم مُغايرة ومتخلصة من جميع التبعية الاستعمارية ومشككة في ذلك التاريخ الشفوي المروي من قبل النخب الاستعمارية.

إنّ أهم ما تقدمه الدراسات ما بعد الكولونيالية أنها تبحث في تجليات البعد الكولونيالي في ثقافات الأمم التي تعرضت للاستعمار لتقف على مظاهر استمرارية الولاء والتبعية لهذا المستعمر، منددةً بوجوب التخلص منها في سبيل كسر هذه الهيمنة وتحقيق الثقافة الشعبوية والهوية القومية بعيداً عن كل ما له علاقة بالثقافة والتاريخ الخارجي، من هنا طُرحت فكرة الهيمنة بكل أشكالها في اجتهادات منظرو الدراسات الثقافية مقترحين بذلك حلولاً لتجاوز كل المشاكل الفكرية الداخلية والخارجية التي تشكل خطر استمرارية هذه الهيمنة على الشعوب التي كانت مستعمرة.

أ-الهيمنة الأبوية:

إنّ ما ركّزت عليه "سبيفاك" وحاولت تغيير نظام اشتغاله هو تبعيّة المرأة للذكورة بكل ترانتياتها سواء الأب أو الأخ أو الزوج أو حتى الصديق، بحيث ترى أنّ المرأة صوتٌ يعيش في منظومة سوسيوثقافية تفرض هذا النمط من التبعية وهي تمثل الآلاف من النساء الرافضين لهذا التوجه الناتج عن الأنظمة الاجتماعية المختلفة فإنها متنقلة من عشيرة إلى عائلة كابنة كأخت كزوجة كأم هذه الصورة تمثل استمرارية الأبوية في نفس الوقت الذي تُحرم فيه المرأة ذاتها من الهوية الحقيقية بمعنى: أن هوية الذكر المبنوثة والحاضرة دائماً وباستمرار في المجتمع هي إلغاءً لهوية الجنس الآخر (المرأة)، وهذه الإشكالية تراها "سبيفاك" بنية ثقافية متجذرة يصعب الانفلات منها لتشكّلها وانبثاقها المستمر في الثقافات المختلفة في العالم بأسره.

ثانياً: الهيمنة في الدراسات الثقافية**1- الهيمنة الثقافية والفكرية.**

تعد وسائل الإعلام والاتصال أدوات ثقافية لأنها تشكّل الوسيلة الأولى للحصول على الثقافة بالنسبة لكل شعوب العالم، ويمكننا القول أنّ المسؤولية كلها ملقاة

أ- الهيمنة ووسائل الإعلام والأدب

وقد أمكن الحفاظ على هذه الهيمنة الثقافية من خلال فرض مجموعة من المعايير حول النشاط الأدبي الما بعد كولونيالي بوصفه أدباً دون قيمة معرفية ولا ثقافية ولا يعكس ما يجري في الأوساط الحضارية لأنه يبقى أدب ما بعد كولونيالي مرتبط بالمستعمرات ولا يمكن له أن يرقى ليصنّف معيارياً مع الأدب العالمي « من خلال فروض معيارية على النشاط الأدبي بوصفها فروعاً وطنية منعزلة عن الأدب الإنجليزي وبالتالي يهبط لها إلى موقع هامشي وخاضع»¹⁶

المطلب الثاني: القابلية للاستعمار تؤسس للهيمنة

سعى مالك بن نبي في مشروعه الفكري الحضاري إلى تبيان قيم الحضارة العربية والإسلامية في ظل جميع المغريات الغربية وما توصلت إليه، داعياً من خلال مواقفه إلى محاولة فهم المعادلة الحضارية التي نسجتها الدول الغربية بخصوص أو على المجتمعات الشرقية والعربية لتفعيل قيمها.

أولاً: مالك بن نبي وعقدة الانبهار بالآخر.

1- المشكلات الخارجية

حدّد " بن نبي " المشكلات الخارجية التي ساعدت على تحقيق القابلية للاستعمار بالاستعمار الفكري، حيث قسم هذه العوامل إلى قسمين أولها يفعل ما أطلق عليه «معامل الاستعمار والثاني ما يطلق عليه اسم معامل القابلية للاستعمار»¹⁷ ومهامل الاستعمار يستخدمه " بن نبي " كمعامل خارجي للإشارة إلى ما يفرضه الاستعمار من عامل سلبي بتحطيم الفرد المستعمر وهو ما يعبر عنه بقوله «المعامل الاستعماري هو هدم لجوهر الفرد ومحو لعبقريته بالانقاص من قيمته وتحطيم لقواه الكامنة فيه»

حسبه هنالك نوعان من الاستعمار الأول ما يطلق عليه الاستعمار المحافظ وهو الذي لا يتدخل بشكل مباشر في حياة المستعمر بإبقائه لبعض الحرية لأبناء المستوطنات، أما النوع الثاني وهو «الاستعمار الاستبدادي الذي يتدخل مباشرة في أدق تفاصيل حياة المستعمر كما أنّ عمله يأتي ممنهج وفق مجامع ومؤتمرات دولية يرسم الاستعمار خطه في الهدم الأخلاقي والمادي»¹⁸

أ- علاقة القابلية للاستعمار بالهيمنة:

إنّ الحديث عن الهيمنة الممارسة على الشعوب تعكس لنا جانباً مهماً في هذه الإشكالية وهو أنّ الهيمنة اختلفت وانتقلت من شكلها العسكري إلى شكلها الحضاري والفكري، فالراهن هو الذي نقل هذه الحقيقة من خلال مجموع الأحداث العالمية التي نعيشها في الكثير من الدول وعلى رأسه الدول العربية من خلال تغيير النظم العربية والإسلامية في الكثير من المجالات ،من باب الامتثال للثقافة الغربية، هنا سنقف قليلاً نتمعن كيف يمكننا تفسير قدرة دولة على تفعيل جملة من مبادئها على دولة أخرى ، هذا ما يُسمى بالهيمنة الثقافية وهنا تتقاطع مع القابلية للاستعمار في جملة من المشكلات الحضارية الراهنة.

إنّ القابلية للاستعمار كما تطرق لها " بن نبي " تشكل إشكاليةً كبرى فيما تعلق بثبات الهويات الفكرية والدينية للأمم، من أجل هذا كان طرح " بن نبي " فيه من الواقعية في الوصف وتحليل الأمور خاصة فيما تعلق بالفهم الخاطئ للإسلام وقوانينه.

ثانياً: المشكلات الداخلية.

1-المشكلات الدينيّة: إنّ المشكل الدينيّ في تصوّر " مالك بن نبي " قديماً وحديثاً ما هو إلّا نتيجة ضعف الأساس المفاهيمي لماهية الإسلام فالجهل بحقيقة الدين «جعل المسلم يتصور الدين على أنه شكل من

أشكال الدروشة والتصوف و الإنحراف والخرافات والأوهام...»¹⁹ وانطلاقاً من هذا التصور أورد لنا مثال العمل عند المسلمين وما يقابله عند الغرب ، يرى في ذلك أن الفرد المسلم تأثر أيما تأثر بمنطق العمل لدى الغرب دون تمييز « بين أصالة الأفكار وفاعليتها...إذ أن المسلمين لم فاعليتهم لعدم تمسكهم بالإسلام بل لهجرهم لروحه الحقيقية»²⁰

تعقيباً لطرح "بن نبي" نقول أن المسلمين لم يدركوا قيمة الإسلام ولم يميزوا بأن أهم القوانين سواءً اختص بقانون العمل أو العلاقات الإنسانية، صدر في الإسلام قبل أن تكون في الغرب الذي انبهر به المسلم.

***المشكلات الفكرية:** ومن المشكلات الفكرية التي كان لها الأثر في تحقيق القابلية للاستعمار حسب "مالك بن نبي" «مشكلة عدم تماسك الأفكار»²¹ حيث استخلصها من واقع الفراغ الفكري الذي بات يعيشه الفرد المسلم في ظل الرهانات، وهو الفرد الذي يكون دائماً منبهر بالأجنبي الآخر، مايسهل على المستعمر تحقيقه قدرته ورغبته على السيطرة لأنه يعمل على أن يظهر نفسه كنموذج.

الخاتمة:

انطلاقاً مما سبق تبين لنا أن الهيمنة تستمر حتى ما بعد الاستعمار والهيمنة الممارسة على الدول المستعمرة أخطر من الاستعمار نفسه، بصورة أو بأخرى المواجهة المباشرة تصنع الاستعداد لدى الدول المستعمرة عكس الاستعمار الحالي الذي يضرب في هويات وحضارات الأمم وبناءً على هذا نقول إن: الدراسات ما بعد الكولونيالية وقفت على تاريخ الشعوب المستعمرة في تبيان تبعات الاستعمار وشوائبه المستمرة والخطيرة على الثقافة والهوية لتلك الأمم.

إن الهيمنة الممارسة على الشعوب اختلفت عن الهيمنة العسكرية المباشرة لتنتقل إلى الهيمنة الأيديولوجية والثقافية عبر وسائل الإعلام والاتصال ساعيةً إلى طمس كل الهويات والثقافات الشرقية وهذا أخطر استعمار صنفه الدارسون في النظرية.

يُشكل موضوع التابع في الدراسات ما بعد الكولونيالية حجراً أساسياً لأنه فتح فرصة الموازنة بين الشرق والغرب، الأبيض والأسود، المرأة في العالم الثالث والمرأة المتقدمة، ووضعنا أمام إشكالية متى يستطيع التابع أن يتصرف بدل أن يتكلم

سعى " إدوارد سعيد" إلى تفكيك الصورة النموذجية السيئة التي رسمها الغرب في خطاباته الأدبية والنقدية عن الشرق في كونه المتخلف.

يرى "مالك بن نبي" أنّ إشكالية الاستعمار خاصة في الدول الإسلامية والعربية سببها قبل كل شيء مشاكل داخلية تمثلت في الفهم الخاطئ للدين وعدم التخلص من عقدة الدونية بالمقابل يدعو إلى تعظيم الحضارة الإسلامية و تفعيلها.

الهوامش:

- ¹ بيل أشكروفت، غاريت غريفت، هلين تيفن، الرد بالكتابة النظرية والتطبيق، في آداب المستعمرات القديمة، ترجمة شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2006، ص 39
- ² هلين تيفن، بيل أشكروفت وآخرون، دراسات مابعد الكولونيالية، المفاهيم الرئيسية، المركز العربي للترجمة، الطبعة الأولى، 2010، ص 197
- ³ روينسون دوغلاس، الترجمة والامبراطورية، نظريات الترجمة مابعد الكولونيالية، المجلس الأعلى للثقافة، 2005، ص 38
- ⁴ شهلا العجيمي، أدب الشعوب التي تحررت من الاستعمار، وقائع البحث العلمي فب الأردن، النقد الثقافي، ودراسات مابعد الكولونيالية، ص 24
- ⁵ عمر أزراج، نظرية مابعد الكولونيالية، المقاومة والنقد، منشورات منتدى الاستغراب <https://istighrab.iicss.iq>
- ⁶ سمير خليل دراسات مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، دار الكتب العلمية، لبنان 1971، ص 24
- ⁷ غراب عبد القادر، فرانز فانون رجل القطيعة، ترجمة عبد السالم يخلف، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر، 2013، ص 20
- ⁹ فرانز فانون، العام الخامس للثورة الجزائرية، ترجمة ذوقان قرقوط، anep، دار الفرابي، ط 1، الجزائر، 2004، ص 30
- ¹⁰ إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط 5، 2001، ص 47/46
- ¹¹ 1997، ص 95 إدوارد سعيد، الثقافة والامبرالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الأدب بيروت
- ¹² إدوارد سعيد، الاستشراق، ص 71
- ¹³ بيل أشكروفت وآخرون، الرد بالكتابة، ص 24
- ¹⁴ نشمنراد، غاياتري سبيفاك، منظره هندية (خطاب ما بعد الاستعمار) مجلة ثقافة الهند، المجلد 65، العدد 1، 2014، ص 40
- ¹⁵ المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- ¹⁶ عواطف عبد الرحمان، قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم، سلسلة كتاب الثقافة، يصدرها المجلس الأعلى للثقافة، والفنون والأدب بالكويت، 1987، ص 336
- ¹⁷ مالك بن نبي، شروط النهضة، سلسلة مشكلات الحضارة، ترجمة كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، ط 9، دمشق، دار الفكر، 2009، ص 153/150
- ¹⁸ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، سلسلة مشكلات الحضارة، ترجمة بسام بركة، أحمد شعبو، ط 9، دمشق، دار الفكر، 2009، ص 160/159.
- ¹⁹ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 149.
- ²⁰ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ²¹ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، سلسلة مشكلات الحضارة، ترجمة عبد صبور شاهين، ط 6، دمشق، دار الفكر، 2006، ص 53/51.